



النهجية المراجعية لتحرير القدس

أ. سعود أبو محفوظ

إصدار
وحدة الدراسات والبحوث
مؤسسة القدس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

إن «تحرير بيت المقدس» ظل الهم الأكبر والهدف الأبرز في عقل ووجدان كل عربي ومسلم، فالقدس قلب فلسطين النابض، وقد كانت وما زالت محط أنظار العالم عبر التاريخ، المباركة المقدسة. وبالرغم من تعرضها لمخططات التهويد والطمس والاستيطان والعزل وممارسة العنصرية بأشجع صورها وأشكالها، بقيت «بوصلة» المحررين والمجاهدين والعاملين لاستعادتها من جديد إلى حضن الأمة.

ويسعد «مؤسسة القدس» أن تقدم هذه الرسالة الصغيرة بحجمها الثمينة بمضمونها بقلم الأستاذ سعود ابو محفوظ (عضو مجلس أمناء مؤسسة القدس) الباحث والمحاضر المتخصص في شؤون القدس. هذه الرسالة تقدم دراسة تحليلية لمنهجية القائد الفذ «صلاح الدين الأيوبي» في تحرير القدس، لتكون نموذجاً يقتدى به ونبراساً يهتدى به، علماً تسهم في توعية الأمة بشبابها ورجالها ونسائها في اتباع سنن الله وقوانين التاريخ في التمكين والتحرير.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الرسالة ليأخذ كل منا موقعه في مشروع تحرير فلسطين واستردادها من أيدي الصهاينة المحتلين، ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

والله الموفق

- الكتاب : المنهجية الصلاحية
- تحرير فلسطين
- تأليف : الأستاذ/ سعود أبو محفوظ
- السلسلة : رسائل القدس
- قياس الصفحة : ١٠ × ١٤
- رقم الإيداع : ٩٦٨٣ / ٢٠٠٣
- جميع الحقوق محفوظة
- مركز الإعلام العربي
- ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
- هاتف : ٢٨٣٣١٩٨٢٨٤٤٤٤٢٢٢٨٣٣٦١
- التوزيع : ٧٤٤٥٤٥٥ ● ف : ٣٨٥١٧٥١ (٠٠٢٠٢)
- الموقع على شبكة الإنترنت :

Home Page: www.Resalah4u.com

● البريد الإلكتروني :

E-Mail; media-c@ie-eg.com

● ● ●

● مؤسسة القدس

● لبنان - بيروت - شارع الحمراء

● بناية السارولا - ط ١١

● هاتف : ٧٥١٧٢٤/٥ - ١ - ٩٦١

● فاكس : ٧٥١٧٢٦ - ١ - ٩٦١

● العنوان البريدي :

● بيروت - الحمراء : ٥٦٤٧ / ١١٣

● البريد الإلكتروني :

● alquds_institution@yahoo.com

● الموقع الإلكتروني :

● www.Elquds.Net



القسم الأول الظروف التي سبقت ظهور صلاح الدين

أولاً: التحديات الداخلية وضمور روح الجهاد في الأمة

■ شهد القرن السابع الميلادي اكبر حدث في التاريخ وهو بزوغ فجر الاسلام، واندفاع قواه المجاهدة شرقاً لشطب الامبراطورية الفارسية التي دوخت العالم لقرون، وشمالاً لاجلاء الامبراطورية البيزنطية عن الشام دار قيام المسيحية التي يدينون بها. وانتزع الاسلام أجزاء من تركيا ومصر وشمال افريقيا والاندلس مع جزائر المتوسط وصقلية، ووصل الى جنوب ايطاليا، فحوصرت أوروبا الغربية عقيدياً ولغوياً واقتصادياً واجتماعياً، وكان الحصار محكماً شاملاً ودينياً وفكرياً مؤثراً، مما ادى الى مضايقة القبائل الاوروبية التي تمددت شمالاً وغرباً وغيرت من انماط حياتها السابقة فاتجهت الى الاكتفاء الذاتي زراعياً والى التماسك الداخلي قومياً، مما ادى الى بداية ظهور اللغات المحلية المستقلة عن اللغة اللاتينية، وادى الازدهار الزراعي الى ظهور طبقات الفرسان والنبلاء والى نزوح اليهود من بلاد الخزر واوروبا الشرقية للقيام بأدوار وظيفية وربوية ضمن أنظمة الجيتو التي عرفوا بها.

■ من جانب آخر كانت معركة اليرموك حاسمة في تاريخ البشر، لأن تداعياتها العسكرية والسياسية والاقتصادية

الادوار واستعانوا بالاعوان.

■ في هذه الاثناء توقفت الاندفاعة الاسلامية وانتهى دورها الجهادي أو كاد، ولم يعد لها جيوش وانهارت الثغور واستأسد عليها الصفاريون والسامانيون والقداحيون والخرميون والمزديون والقرمطيون وغيرهم كثير ممن تعددت اسماؤهم ولا يختلف هدفهم. لقد تعرض المشرق الاسلامي كما المغرب الاسلامي كما مصر الى هجمة افرغت الاسلام من محتواه وسلبت ملكه وشوشت تعاليمه وحولت اتباعه، ولولا عناية الله به وحفظه لكتابه لما قامت للإسلام قائمة.

■ لقد وصل الامر الى تهديد مكة والمدينة والحجر الاسود وقبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومرّ زمان على الازهر الشريف، بل على الحرمين الشريفين ان ينهض المصلون فيها قياماً عند ذكر اسم الحاكم بأمر الله سلطان القاهرة المحروسة. لقد كانت حلقة محكمة قوية الدعائم متعددة الاطراف اشاعت الرعب والفرع والسلب والنهب والفرقة والتمزق. واستمر هذا النهج لقرون ونهض به عدد من المهوسين الذين افسدوا على الناس دينهم، وعندما تتبع انسابهم او اصولهم او تربيتهم تجدهم موصولين بخيط يهودي متين ودعاة فكر تلمودي مكين.

■ لقد اسودّت صفحات التاريخ من الاعمال الهمجية التي

والاجتماعية والثقافية ادت الى انكماش القسطنطينية واضمحلال نفوذ روما، وكانت الاندفاعة الأموية القوية خير استثمار لمعركة اليرموك، غير ان الرخاوة التي سادت العالم الاسلامي عقب حكم العباسيين اسست لصراعات داخلية كثيرة، فتصدعت أركان الدولة الاسلامية وتراخت قبضتها وانهارت قوتها وتوقف الجهاد.

■ ولكن بعد هذا الامتداد والانتشار للدعوة والدولة الإسلامية، بدأت تعاني من التحديات الداخلية، التي تركت أسوأ اثر في الحياة الاسلامية في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونجحت في تغيير المجتمع الاسلامي تغييراً جذرياً بعدما أفسدت العقيدة الاسلامية التي حولها الى طقوس وثنية لا تمت الى الاسلام بصلة. لقد بدأ التحدي منذ عهد عمر بن الخطاب ونما وترعرع في القرن الهجري الاول واستفحل في القرن الهجري الثاني، وافرغ الدولة الاسلامية من مضمونها في القرن الهجري الثالث ونشأت عشرات الفرق الباطنية والدعوات الشعبية، بل قامت الإمارات والسلطنات المارقة في زوايا الدولة الاسلامية، لا بل انحرف بعض الخلفاء نتيجة التأثير الباطني، الذي وصل تأثيره الى مداه بنزع مقاليد الامور من يد الخليفة القابع في بغداد، وما بقي له الا الخطبة والسكة. وفي هذه الظروف برز الدور السافر لليهود الذين تمكنوا واحكموا قبضتهم ورسخوا نفوذهم وتوزعوا

نظام (الرباطات) في البحر المتوسط وسقطت صقلية وانهارت الخلافة الأموية في الأندلس وخلفها نظام الطوائف المقيت وشاعت حرب الاستغلاب بين المسلمين ونشطت حرب الاستقلال بين المسيحيين. ولما انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر غرقوا في بحر من الصراعات الداخلية مع أهالي مصر والشام، ولم تصمد الإمارة الحمدانية أمام الدولة البيزنطية، وانهار نظام الثغور فتحكمت بيزنطة في شمال الشام وأقامت نظاماً هزيلة حاجزة بينها وبين المسلمين.

■ هذا كله هياً المسرح أمام الشعوب الأوروبية لاجتياح البحر المتوسط لاحقاً بدءاً بالفايكنج وبعدهم النورمان، مما أغوى جمهوريات الموانئ الإيطالية بتجريب حظها معنا، وأغرى فرسان الإقطاع بالتطلع شرقاً إلى حيث الثراء والثروة. ومما أوج الأمر في نفوسهم رواج النبوءات التوراتية وشيوع الروح الصليبية المتعصبة والمتزمتة، التي حفزها انشغال العرب بأنفسهم من الأندلس إلى الشام.

■ الأمر الذي أدى إلى التخلص من الوجود العربي في جزائر الجنوب والسيطرة على المتوسط، وتجهيز المسرح لاندفاع صليبية نحو الشرق شجع عليها احتكار عرش البابوية من قبل أفراد أسرة يهودية تظاهرت بالتحول إلى المسيحية وتخرج في أحضانها البابا أوربان الثاني الذي دشّن المشروع

حركتها فعلاً اصابع اليهود والمجوس التي اتقنت الاندساس والتسلل وتوظيف الآخر لتحقيق الاهداف الخسيصة عبر اشاعة الفتن ونشر المحن التي تشيب لهولها الولدان، ولولا ان الاسلام يحمل سرّ قوته لكان في خبر كان. وثالثة الاثافي أن كتب التاريخ تكشف عن عمق العلاقة بين الحركة الصليبية وبين هذا الركّام الساعي لتقويض الاسلام. لقد مهد هؤلاء للصليبيين الطريق عبر سلسلة من التفاهمات والتحالفات وتبادل الادوار.

■ لقد وصل الامر إلى نهايته بحدوث انقلاب مدوّ في بغداد على الخليفة الشكلي القابع هناك قبل قدوم الصليبيين بنصف قرن، ولكن الله قيض الاتراك السلاجقة لحفظ بيضة الدين ولمواجهة اعداء الداخل والخارج معاً وليتحقق لهم النصر العظيم المدوي في معركة ملازكرد عام ١٠٧١م قبل ربع قرن من ضياع القدس، والذي تزامن مع معركة الزلاقة العظيمة في الاندلس التي مدت عمر الاسلام لاربعة قرون أخرى هناك، غير ان هذا النصر العظيم لم يستثمر لأن الحشاشين كانوا قد اغتالوا ملك السلاجقة العظيم ألب أرسلان.

ثانياً؛ ظهور حروب الاستغلاب بين المسلمين وحروب الاستقلال بين المسيحيين

■ أدى ضعف الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا إلى نتائج وخيمة على الدولة عموماً وبيت المقدس خصوصاً حيث انهار

حيث استطاع السلطان العظيم ألب أرسلان ان يطيح جيوش الدولة البيزنطية وأن يأسر الإمبراطور رومانوس ديغانوس.

■ وعد المؤرخون هذه المعركة استكمالاً لمعركة اليرموك العظيمة، ذلك أنها رسمت الطريق لنهاية الإمبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العثمانية، واندفاعه السلاجقة أسهمت في تمهيد الطريق أمامها. لكن الموت المفاجئ للسلطان ألب أرسلان واحتلال الفاطميين للقدس، ووقوع طلائع السلاجقة بين مطرقة البيزنطيين وسندان الفاطميين في البداية واستفراد الصليبيين بهم في النهاية، أدى إلى تأخير بزوغ نجم العثمانيين لبعض الوقت، لأن المنطقة رزئت بموجتين عاتيتين في قرنين متوالين، الصليبيون من الغرب والمغول من الشرق. فالصليبيون أبادوا نحو عشرة ملايين مسلم أغلبهم من العرب، والمغول أبادوا أربعين مليون مسلم أغلبهم من العجم. ورغم ذلك استطاع الإسلام أن يقف على قدميه من جديد، ذلك أنه ينتعش بالجهد وينكمش بالاستخذاء. باختصار لقد تبدت رحمه رب العالمين وعظمة هذا الدين بتزامن معركة ملازكرد في الشرق مع الزلافة في الغرب، مما أدى إلى استيعاب الاندفاع الأوروبية وإن امتدت لقرون.

■ لذلك يعمل اليهود على ان تسود الجغرافيا السياسية نفسها التي سادت خلال حروب الفرنجة حيث الانقسام

الصليبي لاستخلاص القدس من أيدي «الوثنيين»، فهو الذي تحمل أخيراً وزر الإعلان عن الشروع في غزو المشرق لأهداف معلنة ومستترة.

ثالثاً : بداية حملات الفرنجة الصليبية

■ وبسبب هذه التحديات السالفة الذكر، كان توقيت الغزوة الصليبية حاسماً بسبب التفكك والتنازع الذي ساد البلاد الاسلامية والذي اوهن احوالها على كافة الصعد. لقد احرز الصليبيون (الفرنجة) انتصارات كبيرة لأن حالة الانقسام قد فتكت بالمسلمين وأذهبت ريحهم ولم تسلم من ذلك بيت المقدس نفسها التي تبادل السيطرة عليها السلاجقة والفاطميون عدة مرات مباشرة قبل اجتياح الفرنجة لها عام ١٠٩٩م.

■ لقد كانت الاندفاعة الأولى مجموعة حملات متلاحقة قوامها أكثر من مليون أوروبي متعصب، يساندهم آخرون من أهل البلاد الأصليين وخصوصاً مشاة المارون ورماة الأرمين وبعض قوى السريان، مما هيا لزوال الإسلام من المنطقة لولا أن قيض الله اندفاعة العجم المسلمين من الشرق. فقد تزامن تحرش القبائل الأوروبية بالمسلمين في البحر المتوسط، وظهور قوى إسلامية جديدة قوامها قبائل زاحفة من البر الآسيوي في مقدمتها السلاجقة، كانوا قد سجلوا انتصاراً مدوياً لا يقل عن فتح القسطنطينية وذلك في معركة ملازكرد في عام ١٠٧١م.

سعيد الهروي، وتجاوب معهم كرام الامراء امثال عماد الدين زنكي آقسنقر وولده نور الدين وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبي ونجم الدين أيوب. لقد كان النجاح فآلهم لأنهم أعلوا مدمآك العقيدة الصحيحة في النفوس وتخلصوا من الزيغ والخلط وحددوا عداوتهم باتجاه العدو الغاصب والقادم من وراء البحار ولم ينشغلوا بالتفاصيل، واول من قدح شرارة التغيير كانوا الترك السلاجقة الذين انقدوا الأمة وقاوموا أعداءها.

■ وكان للمدارس النظامية والغزالية والكيلانية دور عظيم في انتشار الأمة من الوهدة التي دفعها البعض اليها. هذه المدارس الفكرية هي التي هيأت جيل المقاومة وأعدته وربت جيل النصر. لقد صنعوا النصر على الارض وقطفه قائد بطل اسمه صلاح الدين.

■ وعلى الجملة فقد لعبت المدرسة القادرية والغزالية دوراً مهماً في حركة الاصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله وأسهمت هاتان المدرستان في الحركة الجهادية التي قادها الزنكيون وعملتآ على اعداد ابناء المهاجرين من البلاد المغتصبة واعادة بعث دورهم من جديد وزرعتآ الوعي واستزرعتآ الواعين على تخوم الصليبيين. وما زالت آثارهما الديمغرافية موجودة اليوم حول فلسطين على شكل عشائر تناسلت من اصلاب تلاميذهما المجاهدين.

والتجزئة والعمالة والارتهان. لقد حاول الفرنجة اجتياح مصر منذ البداية، وقبل احتلال القدس لأن مفاتيح القدس دوماً في مصر. ولكن لاسباب تحالفية أجلوا ذلك فدفعوا الثمن في حطين حيث التحمت قوى مصر والشام ضدهم. وما زالت عقدة حطين تطاردهم فحللوا ودرسوا وقدموا التوصيات لكي لا تتوحد قوى الأمة مرة أخرى، لقد رصدوا الاموال وجندوا القدرات لاستنطاق التاريخ السابق، وفي هذا السياق نال احد خبراء التاريخ الصليبي «يشوع برامز» أعلى جائزة من رئيس الدولة العبرية سنة ١٩٦٩ حيث اثبت ان «السابقة الصليبية لن تتكرر مع اسرائيل».

القسم الثاني التهيئة التراكمية والإعداد المتواصل لجيل التحرير

أولاً: التغيير والإعداد التربوي والفكري للأمة

■ انتصرت الأمة في حطين لأنها انخرطت بإخلاص في معركة التغيير القائمة على أسس عقيدية، وهذا ما أدى الى وضع حدٍّ للمدِّ الصليبي ابتداءً من سنة ١١٢٥م، الذي جاء مباشرة بعد الخلاص من حسن الصباح شيخ الحشاشين عام ١١٢٤، بعد أن فتك واتباعه بقيادة المسلمين وامرائهم وعلمائهم. وقد تزعم عملية التغيير نذر من كبار العلماء في مقدمتهم

ونقيم ما وقع، يا شمس يا قمر يا نهار تعالوا تعالوا». لقد استمات الإمامان الكيلاني والغزالي في أحياء علوم الدين لأجل بعث الأمة وإيقاظ الهمة «كلكم موتى القلوب أحياء النفوس طالبون للدنيا».

■ التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهج حياة، ولقد وجه التعليم الاسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهد بأنواعه كافة وذلك بإعداد النفوس وتربيتها ومجاهدتها في ذات الله، ورافق ذلك اصلاح ما يمكن اصلاحه من اصحاب الاتجاهات المنحرفة. لقد حققوا ثورة اسلامية على الفساد العقائدي والاجتماعي السائد وتضافرت جهود الجميع للتحرر مما هو سائد. فكان نور الدين مجدداً في كل شيء لدرجة انه حدد للملوك اتباع سنن العدل والانصاف وترك المحرمات والانشغال بالمكررات. في هذه الاجواء بزغ نجم صلاح الدين الذي طلق اللذات منذ اتصاله بخدمة نور الدين الشهيد: انه الدين القويم الذي اعاد صياغة الأمة التي وهبت صلاح الدين الذي صاغ بدوره صفوة الجيل في جهد منظم واستراتيجية محكمة افضت الى تحرير الاقصى المبارك.

ثالثاً: دور البربر والترک والأكراد وأطراف الدولة في حماية الأمة

■ في هذه الأجواء لعب العجم دور الحفظ لهذا الدين

■ لقد كانت مدارس صلاح الدين ورباطات المهاجرين هي خندق الدفاع الاول ضد التوسع الصليبي وتحولت الى خط الهجوم الاول في مسيرة التحرير المضفرة. وكانت ريحانة مدارس المدرسة الشافعية الصلاحية التي لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا اوسع مساحة ولا أحفل بناء، إذ يخيل لمن يتطوف عليها انها بلد مستقل بذاته والنفقة عليها لا تحصى. وهذه المدرسة بالذات هي التي اعادت صياغة انسان المنطقة بأسرها ولقرون متلاحقة الى ان تمت أمنية البروتستانت بالسيطرة عليها، حيث قدمت لهم هدية في منتصف القرن التاسع عشر في ذات الفترة التي صُرح فيها بإنشاء اول حي يهودي «مونتيفوري» في القدس الشريف.

ثانياً: دور العلماء في التعامل مع الحكم والحكام

■ لقد ركز الامام عبدالقادر الكيلاني حملته على الامراء والعلماء لأن في صلاحهم صلاح الأمة ولطالما حذر تلاميذه من مجالسة علماء السوء وحذر الجماهير منهم وقال في ذلك كلاماً كثيراً مثل: «لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله عز وجل، كل علمهم عليهم لا لهم. هم علماء بحكم الله عز وجل، جهال بالله عز وجل». واجتهد في مهاجمة الحكام ووجه اليهم سيلاً من الانتقادات الحادة لا تأخذه في الله لومة لائم «صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة». واخذ الكيلاني يهتف بأعلى صوته «دين محمد تتواقع حيطانة، ويتناثر اساسه، هلموا نشيد ما تهدم،

في ثمانين مجلداً مما لم يحصل لمدينة سواها قط. لقد أجهضت حاضرة الشام - دمشق - مشروع الصليبيين، حيث أبقتهم طغمة غريبة غير مندمجة قوامها القوة العسكرية الغاشمة، فلما امتلكت الأمة القوة العسكرية اللازمة زال حضورهم وانتهى دورهم المؤقت.

■ لقد قادت الموصل صحوة إسلامية قوامها المسلمون السنة وقياداتهم العجم الذين وحدوا الأمة على قاعدة الجهاد والمقاومة، وأسهم الحضور السلجوقي في تعزيز هذا النهج المقاوم، وتعزز النهج أكثر بقدوم موجات الهجرة الجديدة من قبائل الغُزَّ وأحدث تولي الملك العظيم زنكي لأمر الموصل تحوُّلاً في تاريخها وهي بدورها أسهمت في تحويل تاريخ الشام بعمومه ولا يزال مزاجها شامياً إلى اليوم.

■ ومن لطف قدر الله أن ظهور نور الدين جاء مع تحول أنظار الصليبيين نحو مصر بعدما يئسوا من إمكانية التوسع في الشام والجزيرة. ولكن نور الدين الذي حاصرهم في الشرق سبقهم إلى مصر في الغرب وزرع لهم شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فحصرهم في مصر واستأصلهم في الشام. واستخص نور الدين صلاح الدين والحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر وكانت وشائج المجتمع في زمنه دينية وكان المسوِّغ الشرعي لعسكرة المجتمع هو القيام بأعباء الجهاد الذي لأجله

والاحتفاظ بدار الإسلام، فأبلى البربر الموحدون البلاء الحسن غرباً، ومثلهم فعل الترك والکرد شرقاً. وجاءت استراتيجية السلطان نور الدين محمود الشهيد لتمهد للتحويلات الكبرى التي أرسى قواعدها صلاح الدين واستكملها الملوك العظام من المماليك. لقد كانت مصر هي حجر الرchy في استراتيجية نور الدين، وكانت الشام الجنوبية هي الأساس في مخطط حماية مصر. فمصر على المدى كانت خزان العرب ومخزنهم وعدتهم وذخيرتهم وأخاهم الأكبر لذلك انطلقت منها شرارة الجهاد وحرارة الإفراء.

■ فلئن وصل تيار المد الصليبي الى مءاءه في عام ١١٢٤م، فإنه أخذ يتحول إلى جَزْر أمام أسوار مدينة حلب التي دشت ثاني مراحل حرب الاسترداد والتحرير وسبققتها في المرحلة الأولى الموصل والثالثة من دمشق، والرابعة - وكانت الحاسمة - من القاهرة في مصر، لقد وقع الصليبيون بين فكي كماشة أحدهما كان الموصل التي تعاضم دورها بتفعيل دور الفك الآخر، القاهرة.

■ لقد كان لتضحيات الموصل وصمود حلب الأثر الواضح في كسر حدة الحملات الصليبية وتدشين حملات الاسترداد الإسلامية، وكان لتمامك دمشق دوره في تحقيق الوحدة العربية والتمهيد لمركة حطين التاريخية. لقد أذهل تمامك دمشق الجميع في ذلك الوقت مما دعا ابن عساكر لتسطير تاريخ دمشق

■ لقد كان صلاح الدين كردياً وأكثر العشائر الكردية الى اليوم متصوفة شوافع وكان ابرز ملامح شخصيته هو الايمان العميق الذي يتقرب من خلاله الى الله عبر مجاهدة النفس والعمل على مجاهدة الكفار. كان ملخص نظرتة الايمان والعمل وخير العمل هو الجهاد، إنها فكرة بسيطة مبسطة بوضوح. فالجهاد هو قطب اهتمامه ومحرك احلامه لذلك سلخ ثلاثة عقود من عمره على ظهر حصان، وكان ينام في الخيام بعدما هجر القصور والاهل وقرب إليه من اشتغلوا بالجهاد، ولم يستمع الا لعشاق الجهاد ولم يصغ الا لمن ذكره بأيات الجهاد وأحاديث الجهاد.

■ وكان لا ينفق الا في الجهاد والاستشهاد والإرفاد، فلقد تشرب ذلك كله من الملك العادل نور الدين وكان مجلسه لا يذكر فيه الا العلم واحوال الصالحين والمشورة في الجهاد وقصد العدو، فنشأ متشعباً بالدهاء السياسي والروح الحربية. وعرف الرجل بالعدل والاعتدال فعدله الداخلي كان يوازي جهاده الخارجي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والعلماء، وكان يحرص على ذلك سافراً وحضراً.

■ اكتملت شخصيته وتراكت خبراته وقويت همته واستطالت عزيمته وصقلت مواهبه في كنف نور الدين الشهيد وخدمه صلاح والده نجم الدين أيوب وتربية شيوخه. ولكن

تحمل المجتمع أعباء جميع الحروب ونفقاتها ورضي بإخضاع القطاع الزراعي لمتطلبات الإقطاع العسكري السائد في حينه حيث تم له بناء اقتصاد عسكري متين يقوم على تسخير الموارد الزراعية لصالح المجهود الحربي.

القسم الثالث ولادة صلاح الدين ونشأته، ومكانته ودوره التاريخي

أولاً: الولادة والنشأة وطبيعة الشخصية

■ ولد صلاح الدين عام ١١٣٧م في تكريت أثناء فرار والده منها، لقد زهد الوالد الهارب في المولود ليلة ولادته، ولكنها مشيئة الله التي وهبت هذه الامة تلك الولادة المعجزة. فلقد كانت الولادة تكريتية في العراق والتربية بعلبكية في لبنان والنشأة دمشقية في سوريا والاستيزار قاهرياً في مصر والمواجهة إسكندرانية في الوجه البحري، والتحشيد في الخبرة السمرا في الاردن والانجاز ديار بكرياً في تركيا، والتحرير مقدسياً في فلسطين.

■ ولد صلاح الدين على ظهر حصان وعاش على ظهر حصان ومات على ظهر حصان. كانت الولادة في قلعة تكريت وكانت التربية في محضن عمه شيركوه «اسد الجبل» في بعلبك، وكانت الحياة كلها في القلاع الى ان مات في قلعة دمشق في ١١٩٣/٣/٤م فهو شبل تربى في حضن أسد.

سوى دينار واحد، وستة وثلاثين درهماً، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً وله من الاولاد ١٧ ذكراً وبنت واحدة». وقال مرافقه ابن القاضي ابن شداد: «كان رحمه الله عنده من القدس امر عظيم لا تحمله الجبال» وكان صلاح الدين يقول: «كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين» وكان يرغب ان يركب البحر ويغزو مواطن الفرنجة في اوربا لنشر الاسلام.

■ كان صلاح الدين شديد التعلق بثقافة الجهاد واعتنى بكتب الجهاد وبخاصة الكتاب الذي وضعه القاضي ابن شداد والذي كان كتابه لا يفارق صلاح الدين وكذا كتاب الجهاد الذي الفه علي بن طاهر السلمى النحوي المتوفي ٤٩٩هـ والذي كان يدرسه في الجامع الاموي وجاء الكتاب في اثني عشر جزءاً وذلك اثر الاحتلال الصليبي للقدس وكان هذا الكتاب اول من قال بأن الحركة الصليبية واحدة في الاندلس وصقلية والشام. قالها قبل ابن الاثير بقرن كامل وكان اليهود قد نشروا أجزاءً من هذا الكتاب عام ١٩٦٦م واهتموا به كثيراً.

ثانياً: المكانة والأهمية

■ لقد جند صلاح الدين كل افراد المجتمع لمعركة التحرير لأنه صاحب استراتيجية كانت تقوم على اساس ان تهب الأمة بمجموعها لطرد الغزاة، فكانت روح الجماعة هي السائدة

الحادث الذي انعطف به نحو الانطلاق كان فجيعة برؤية علاج فرنسي يدوس بحذائه على رقبة عجوز مسلمة في منطقة غزة فأقلع عن الدنيا ومباهجها، وأقبل على الآخرة ومناهجها. فشمّر عن ساعد الجد والاجتهاد، فكان يُرى «ساجداً يبكي ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته»!

■ وتكالبت الامراض على جسده، في مقدمتها الملاريا التي هدت جسمه، والدمامل التي نهشت جلده من سرته الى ركبته فكان يجهد النوم والجلوس ولا ينساهما الا راكباً للنزال في الحروب والخطوب، ولا يذكرهما حتى ينزل. لقد كان جسده لا يقوى على حمل احلامه واهتمامه ولكنه الصبر الذي فجر فيه ينابيع العطاء.

■ وكانت رغبته في كنز الاموال معدومة فملك ما ملك ولم يوجد في خزانته شيء اذ كان يقول: «شر الامراء من سمن كيسه وأهزل الخلق». لقد هانت عليه الدنيا فملكها ولذلك لم يتحقق له نصاب الزكاة وكان الصوم يحرف مزاجه، وأما الصلاة فكانت تجهد، ومع ذلك عرف بشدة عبادته، وأما الحج فلم يكتب له رغم حرصه عليه وذلك لانشغاله بالجهد، فلما عزم على اداء فريضة الحج في النهاية مات قبل الموسم بشهرين.

■ قال العماد: «مات صلاح الدين ولم يترك في خزانته

بنيان المجتمع المسلم. في لحظة حرجة وفرصة نادرة توفر للأمة صف قويم وقائد مستقيم حققا لها النصر العظيم على عدو لئيم. انه الايمان الذي زرع في سويداء القلوب وانها عقيدة التوحيد التي نمت بذرتها في جذر القلوب وانها الاشواق لصيحات الجهاد التي حرمتها الأمة منذ ان مزق التآمر الداخلي شملها ومزق جمعها وكان المسبب الحقيقي هو مكر اليهود وان تستر بمسميات مبتكرة وتسربل بلافتات متجددة.

■ إن أجل أعمال صلاح الدين كان تحقيق حلم نور الدين بتخليص مصر وضم فكي الكماشة الدمشقية القاهرية على مملكة بيت المقدس الصليبية. هذا الانجاز العظيم الذي تحقق رغم التحديات الهائلة في مصر عمل على اجهاض التمدد الصليبي واسهم في تقهقره ليلوذ بالقلع وليحتمي بالحصون التي استطاع صلاح الدين استدراجهم منها الى بطن حطين ليدفعهم الى مطحنة النصر الذي دشن نهاية مشروعهم المشؤوم. كان متعذراً الخلاص من الصليبيين وكان مستحيلاً تخليص المسجد الاقصى دونما وحدة الشام ومصر التي ما أن تحققت حتى زالت دولتهم.

■ بحنكته ودرايته واخلاصه استطاع نقل مرض الفُرقة والتشرذم الذي عُرف به العرب إلى صفوف الصليبيين، فتمزق شملهم حضارياً واقتصادياً، ووظف قدراته الدبلوماسية لتوسيع

ولذلك اهتم بشؤون الافراد حتى انه اسقط كافة الضرائب عن اهل الاسكندرية ولم يحصل الا الجزية من اليهود والنصارى ولم يأخذ الا ٨/٣ منها وانفق الباقي على الشؤون الاجتماعية. لقد وفر للمواطنين حقوقهم كاملة فاعطوه بلا حدود وانقادوا اليه بلا قيود. كان تأهيل المواطنين واعادتهم للمواجهة هو مفتاح النصر في معركة تحرير القدس.

■ ولقد أسس صلاح الدين مجلس التخطيط الأعلى الذي رسم سياسة عامة للتعليم نقلت الأمة من حال التفكك والضياع الى حال التماسك والاندفاع وحولتها من الركون والاستسلام الى التوثب والإقدام. لقد صلحت العقيدة بصلاح التعليم وبصلاح العقيدة امتدت حركة الاصلاح الى كل ميادين الحياة، بعدما أبعدت الأمة عن الجهاد وغرقت في الفساد واسقطت عنها التكاليف وفرضت عليها الضرائب وتمزقت وحدتها ومزقت قامتها وتحكم فيها اليهود عبر صنائعهم فكان لابد من انتفاضة قوية وصرخة تعيدها الى الاصول وهدى الرسول.

■ لقد كان صلاح الدين ومن قبله نور الدين من النماذج الفريدة التي قطعت صلتها بالدنيا واتجهت الى الآخرة فظهرت مهارة فائقة في التخطيط والادارة فربت وهيأت وعبأت وحشدت ودفعت الى المعارك نخب متميزة قوامها خريجو المدارس القادرية والغزالية ممن امتد تأثيرهم وترسخ اثرهم في

الحكم المصري السابق ممن اعتادوا التحالف مع الصليبيين والخضوع لرغباتهم وتقديم الجزية لهم. وتعرض الرجل لست محاولات اغتيال من الشراذم والفرق المختلفة ولكنه استطاع ان يضم قوى الأمة وتحشيد قدراتها ويوحد صفها ويرفع بنيانها في دولة كانت الاوسع والامنع منذ قرون امتدت رقعتها من آسيا الصغرى الى قلب افريقيا. وكان ثقلها الاساسي وعمودها الفقري مصر التي تشكل دوماً الأخ الأكبر لجميع العرب.

■ ان النصر ثمرة للتضحية وان النصر عادة ما يكون ثمرة لجهود تراكمت لتكون هراً ذروته النصر المؤزر الذي يحصده رمز وبطل توافرت له الاسباب والمسببات، لقد بذر مودود فقتل وسقى عماد فقتل ورعى واعتنى نور الدين حتى مات، وفي عهد صلاح الدين كان الحصاد، فبحسب تعبير المستشرق جب فان، حصاد صلاح الدين «يمثل احدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري» ذلك انه قطع حبل الوجود الصليبي واستأصل دابرههم في الديار المقدسة. لقد تهيأت له الظروف كما تتهيأ الارض العطشى للمطر فكان الغوث الذي طالما انتظره الزرع والضرع.

ثالثاً: الدور التاريخي لصلاح الدين

■ كان صلاح الدين ملكاً زاهداً وفارساً مجاهداً لمع اسمه في سماء المسلمين كالنسر العظيم الذي خفق له قلب كل مسلم

الشقة بين الصليبيين المولودين في الشام وبين القادمين الجدد وفجّر التناقضات المصلحية بين طوائفهم وطبقاتهم المختلفة خصوصاً أنهم لم يعتادوا الطاعة والضببط والربط ولم يجتمعوا سابقاً إلا على مصلحة. ووافق ذلك تكثيف النشاط العسكري ضد الحصون والقلاع والمزارع المنفردة لتحطيم الاقتصاد الصليبي عن طريق العصف بكيانهم عسكرياً وسياسياً.

■ عمل في البداية على تحويل دمشق إلى منطقة محمية ونقطة ارتكازية وحرر الجولان وجبل عامل والبقاع وحصّن طريق الموصل وحرر الأردن، إلا أنه عجز أمام قوة حصون الكرك التي هاجمها أربع مرات ولم تسقط إلا بعد زلزال حطين.

■ دفعه مرضه الخطير في تشرين الثاني ١١٨٥م للتوقف تماماً عن مسار التوحيد للبلاد والتوجه الفوري للشروع في عمليات تحرير القدس لئلا يحصل له مكروه وتفوت الفرصة على المسلمين، فأوعز إلى واليه على حلب بترتيب هدنة مع فرنجة انطاكية ليتسنى له حشد عساكر في حلب في جيش الجهاد المتوجه إلى القدس.

■ كان بمقدور صلاح الدين مهاجمة القدس فور امتلاكه دمشق، لكنه أثار أحماد الفتن التي تفجرت في وجهه من المتعاونين مع الصليبيين سواء في البلدان الشامية أو في اليمن أو من بقايا

مسألة انتزاع القدس من أيدي «الوثنيين المسلمين» كما يسمونهم، وحيثما ذكرت الحروب الصليبية ذكر صلاح الدين الذي تاه على أوروبا مجتمعة مرة بنبله ومرة بسيفه.

■ فكان صرخة الزمان ومعجزة المكان وفارس الاسلام ورمز الجهاد وسيف الحق الذي كسر حدة الهجمات الاوروبية والغزوات الصليبية التي اتخذت شكل زحف بشري هائل قوامه النبلاء والكهنة والامراء والفرسان وارباب الإقطاع واللصوص والمجرمون وقطاع الطرق الذين كانوا يربطون الخرق ولثافات القماش على أرجلهم لطول المسافات التي قطعوها من اقاصي بلاد الفندال والسكسون واللومبارد والبافار وأعالي الدانوب والراين واللورين، حيث شاركت جموعهم من ثمان وثلاثين قومية ضد الفلاحين البسطاء في محيط القدس ممن لم تكن ترعاهم دولة ولا يحميهم جيش، فجاء صلاح الدين ليكون جدارهم وحائطهم الذي يحتمون ويلوذون به. كان شعار المعتدين: «تخليص القبر المقدس من ايدي الكفرة عبدة الشيطان»، فخلصنا منهم صلاح الدين في تسع سنين.

■ لقد أضاء صلاح الدين الكردي سماء الاسلام بنور الجهاد لمدة ثلاث قرن، ولا تزال الامة تذكر له تلك الصفحة البيضاء التي سطرها بالدماء، ومسح فيها ظلمة الهزيمة وطهر خلالها قبلة الاسلام من الدنس. وكان المسجد الاقصى سقط في ١٥/٧/١٠٩٩م

وارتجف منه قلب كل صليبي. وبقي اسمه يستذكر وسيرته تستحضر كلما دهم الأمة خطر أو أصابتها مصيبة. ولقد تناول سيرته الكتاب والمؤرخون وما زالوا فما كتب عنه عبر ثمانية قرون يتفوق على ما كتب عن نابليون كما يذكر الاستاذ شاعر مصطفى.

■ وأحدث يقظة شاملة في جميع الميادين الحضارية تجلت في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال التي تحسنت أسلحته ولا سيما النارية، وبالذات التي طورت استعمال النفط الخفيف. وارتفع مستوى التدريب والقدرات القتالية الهجومية وابتكر العرادات والجروح والالغام الحديدية المثلثة التي تبذر لعرقلة الخيول.

■ وأبقى الباب مفتوحاً للتجارة مع بعض جمهوريات الموانئ الإيطالية لكي يسهل له الحصول على الخشب والفولاذ وغيرها من المهارات الضرورية لبناء القوة العسكرية اللازمة. وأمام ضعف إمكاناته البحرية في مواجهة سيطرة الأقوام الأوروبية على البحر المتوسط عمد إلى استقطاب البحارة المغاربة من المحترفين بحرياً خصوصاً ممن تطوعوا للجهاد عاماً في فلسطين و عاماً في الأندلس.

■ كانت الحروب الصليبية وحملاتها المتوالية هي مشروع الغرب المسيحي، حيث لم تتوحد أوروبا قط على أمر الا على

وأنشأ داراً لصناعة السفن في دمياط ووزع الاسطول مناصفة بين مصر والشام لحماية السواحل.

القسم الرابع منهجية السلطان صلاح الدين الأيوبي في التحرير

تتسم منهجية صلاح الدين بالنجاح والفلاح لأنها أثمرت تحريراً شاملاً للأرض المقدسة في فترة وجيزة استطاع من خلالها مواجهة (٢٢) ملكاً أوروبياً وخوض (٧٤) معركة وتحرير (٥٠) مدينة وبلدة. ويجمع المؤرخون على وصف صلاح الدين بأنه رجل عظيم جداً انتصر على اعداء أقوياء جداً في زمن عصيب جداً. وتتجلى عظمة صلاح الدين في اتخاذه للقدس مشروعاً والاقصى قضية وهمماً، ولم ينشغل بسواهما قط. فكل أعماله الجليلة في كافة المجالات كانت مكرسة لهدف محدد وغاية واحدة هي تحرير الأقصى المبارك والقدس الشريف. وقد توزعت منهجيته على مراحل يمكن تمييز ثلاث منها:

أولاً: المرحلة المصرية

وقد استمرت نحو تسع سنوات، بدأت حين اختاره نور الدين في سن السادسة والعشرين ليرافق الجيش الى مصر، وبعد جولات عديدة وعنت شديد تولى الوزارة في الخلافة الفاطمية

وأبدي في جنباته كل العباد والزهاد والعلماء وطلبة العلم. لقد كان التحدي الصليبي كاسحاً فطمس كل ما بناه تسامح الاسلام في قرون وهدم ثقافة السلام التي اشاعها الاسلام في عموم الشام، وكانت المجازر البشعة والمذابح الهمجية دافعاً للمسلمين للعودة الى فكر الجهاد من جديد. ولما عجز عن النهوض به من ألفوا الزراعة والفلاحة واذناب البقر من عربان الشام قويض الله له حملة السيف من سواعد القبائل المسلمة من الكرد والترك الذين زحفوا من وسط آسيا لملء الفراغ القيادي الحاصل وذلك عبر زحف بري اسلامي يصادم الزحوف البحرية الصليبية.

■ بنى صلاح الدين الكثير من التحصينات العسكرية وأنشأ «الفرق الصلاحية» وهي فرق للمهمات الخاصة واهتم بالتدريبات اليومية التي رفعت مهارات جنوده الى درجة فاقت الوصف. ففي سنة ١١٧١م نظم صلاح الدين عرضاً عسكرياً ضخماً ضم مختلف انواع الاسلحة بهدف ارباب الاعداء وردعهم بإظهار المنعة واستعراض القوة وسمح لرسل البيزنطيين والصليبيين وغيرهم بمشاهدة العرض الذي شارك فيه اربعة عشر الف فارس، لكل منهم معاونه من المشاة يحمل له السلاح والمتاع. وانقسم الجيش في زمانه الى نوعين: الجيش النظامي، وجيش المتطوعين. وابتدع اسلوب القتال المتناوب واهتم بالقوة البحرية ووقف على نفقته حاصلات اقليم الفيوم وايراد الزكاة وحصيلة النطرون وبلغت قوة اسطوله ٨٠ قطعة و٢٠ طراداً

الجزيرة بأموال الشام وفتح فلسطين بأموال الجميع».

(٢) الحفاظ على تخوم مصر وصمودها : لقد نجح صلاح الدين أمام الهجمات الصليبية المتوالية على دمياط والإسكندرية التي كانت تبادلها الحب لأنها شافعية مثله وخاض حروباً طاحنة لتخليص مصر من المطامع الصليبية، فسهر الليل ولم ينام بالنهار أو بعبارة ابو شامة «فكان لا ينام ولا ينيم لكثرة ما اغتم واهتم واستصعب الملم». فأنجز ما لم يخطر ببال.

(٣) توحيد وتطهير كافة البقاع المصرية : حرص قبل الشروع في الاستعدادات للانتقال إلى الشام على توحيد مصر، فأنجز ذلك في خمس سنوات غير عابئ بضغوط نور الدين الذي احتاجه للإطباق على الساحل الشامي المحتل. وتمكن من مطاردة فلول البيزنطيين والفرنجة في كافة التخوم المصرية وتطهيرها بالكامل.

(٤) تشكيل ديوان الاسطول البحري : لقد كوّن للمسلمين اسطولاً بحرياً ليواجه مئات القطع البحرية التي يرسلها ملك صقلية وامبراطور بيزنطة اضافة الى اساطيل جنوه وبيزا والبندقية و نابولي وغيرها من الممالك الاوروبية.

(٥) تشكيل جيش نظامي اسلامي: لأول مرة منذ قرون

وهو في سن الثانية والثلاثين. وقد أحدث حصوله على الوزارة انقلاباً عميقاً في شخصيته، فعظمت أعباء مهمته، وأحدث كذلك انقلاباً في تاريخ البلاد المصرية فهو وزير سني لخليفة شيعي وكان ولاء الوزير للخلافة العباسية، مما دعاه للسعي الفوري في توحيد البلاد الإسلامية فتقمص فوراً بلباس الجد واستطاع انجاز ذلك خلال سنتين حيث ماتت الخلافة الفاطمية بصمت فتغيرت بذلك مصائر البلاد والعباد. وكان أبرز أعمال وإنجازات هذه المرحلة ما يلي :

(١) توحيد المرجعية العقيدية والتشريعية والتربوية والسياسية، حيث أعاد مصر إلى أهل السنة والجماعة انسجاماً مع محيطها الأفريقي والشامي. فعزل قضاة الأزهر والأقاليم والصعيد وسرح الدعاة وألغى المجالس وألغى التفاسير المغلوطة للقرآن الكريم وأشاع المدارس المالكية في الوجه القبلي والشافعية في الوجه البحري وهو ما عليه مصر الى اليوم. وقد نجح في إبراز دور العلماء واشغالهم في التهيئة والتربية والتعبئة. كما نجح في حل ديوان الخلافة الذي كان قوامه حينئذ نحو (١٨٠٠٠) موظف بحسب المقريري، وهؤلاء فيهم نخب متحكمة ويملكون كتلة عصبوية لا يسهل التغيير بوجودها خصوصاً أن اكثرهم من الارمن ممن بقوا على دينهم. واستفاد من الاموال والذهب والجواهر في تجهيز فتح الشام، لهذا يقول المؤرخون: «لقد فتح صلاح الدين الشام بأموال مصر وفتح

(٧) تأمين الطريق بين الشام ومصر عبر سيناء، حيث امتلأت بالقلع والحصون والخانات، التي انشأها صلاح الدين على طول الطريق الى العقبة التي زارها أربع مرات وحصنها ولا تزال آثاره باقية الى اليوم في جزيرة فرعون جنوب العقبة وفي دروب سيناء.

(٨) تأمين المقدسات في مكة والمدينة وحراسة البحر الاحمر، حيث عمل على السيطرة على البحر الأحمر، لأنه يؤدي الى محاصرة الإسلام في الحجاز ووادي النيل.

(٩) تأمين العمل الاستراتيجي في اليمن والسودان: انشغل بتأمين العمق الاستراتيجي في اليمن والسودان فبعث البعث الى حواضر مروى وزبيد. وعمل على تلافى الاصطدام بأية قوة اسلامية لكي لا يبدد الجهود ويدخر طاقته للعدو الحقيقي المحتل للقدس.

ثانياً: المرحلة الشامية

انتقل السلطان صلاح الدين (رض) الى بلاد الشام حيث دامت هذه المرحلة (١٦) عاماً. وترك أخاه العادل في مصر واصطحب الجميع وتفقد حصن بلبيس وحصن العقبة سنة ٥٧١هـ وتهاياً للمرحلة الثانية من الجهاد في الشام هذه المرة. وكان يتقدم نحو دمشق ببطء لأنه يواجه تحالفاً معادياً قوامه أقوام

حيث ساد الإقطاع العسكري فأصبحت مصر ضمن مطامع الصليبيين، وكانت نقطة الضعف فحولها الى النواة الصلبة التي حطمت مطامعهم التي عبر عنها وليم الصوري بقوله «إن مصر جنة والقاهرة زبد»، فوهبت لها العناية الإلهية صلاح الدين في اللحظة المناسبة. «كانت البشائر في أيامه تترى، شفعاً ووتراً، تتبع الواحدة منها الأخرى». ومن ذلك فتح اليمن سنة ٥٦٩هـ حيث استلحقها بالدولة الاسلامية الموحدة، وكذلك فَتَحَ مناطق واسعة من السودان وكَوَّن قاعدة ارتكازية في مروى .

(٦) توسيع الدولة المصرية : استطاع صلاح الدين بشخصيته السياسية الفذة ذات الدراية الدبلوماسية والدهاء السياسي، والذي مكَّنه خلال سنوات معدودة ان يطيح مئات الامراء المناوئين وعشرات الألوف من الجيوش النوبية والسودانية، وان يستميل الشخصيات المصرية ويجعل مصر ولاية تابعة لا متبوعة. فامتدت بذلك دولته لاحقاً من اذربيجان الى ديار بكر وآسيا الصغرى الى حلب والشام والكرك والحجاز واليمن الى مصر والسودان وبرقة. فكان طبيعياً ان يحرر بهذا العمق بيت المقدس. اذ من المعروف عبر التاريخ أنه من ثبتت أقدامه في مصر طالت يده القدس وبالعكس. لهذا رسخ القاعدة الارتكازية في مصر فحارب القوات الفرنسية المتمركزة في ميناء الإسكندرية واجلاها وانعطف الى العبيد وقضى عليهم في معركة المنصورة.

الكثيرة التي بناها تحت ظلال المآذن، فهو الذي ابتدع اسلوب المدارس المسجدية. وعمد الى بناء المدارس قبل المعسكرات، والمساجد قبل القلاع، وانشغل في الإعداد قبل الجهاد والاستعداد قبل الاستشهاد. ولقد أثمرت جهوده ثورة ثقافية استمرت لثلاثة قرون متصلة خرّجت آلاف العلماء العاملين الذين لاذت بهم الأمة في الفتن السوداء التي عصفت بها لاحقاً، وكان من هؤلاء العز بن عبد السلام الذي ولد في قرية كضر الماء جنوب غرب اربد قبل معركة حطين بعشر سنوات وهياً لمعركة عين جالوت الفاصلة ومات بعدها بعشر سنوات، فكان بحق سلطان العلماء. لقد فجر ثورة ثقافية في الشام وورث حركة الاصلاح الديني عن نور الدين، فنشر المدارس الشافعية وتوسع في بناء دور القرآن منذ ٥٧٣هـ واحتضن طلبة العلم، وقدم العلماء.

(٤) المباغثة وزعزعة قواعد الأعداء: استطاع أن يباغت الإفرنج شرق نهر الاردن ويزعزع قواعدهم وتجمعاتهم ومشاغلتهم غرب النهر ومهاجمة قلعة الكرك أربع مرات انطلاقاً من الرّبة واللجون وماعين وحسيان والعودة الى معسكره المركزي في الخربة السمرا شمال الزرقاء.

(٥) بناء حزام قوي من القلاع في الاردن، والمؤسف ان اسمه قد نزع عن هذه القلاع، فتارة يسمونها النمروذ كما في جبل الشيخ أو فرعون كما في خليج العقبة أو الربض كما في عجلون

الإفرنج والإسماعيلية والنوبية واليهود والارمن والموارنة وبعض العربان. فعسكر في الخربة السمرا شمال الزرقاء لسهولة التحرك في كل الاتجاهات ولقربها من مواقع العدو كونها تقع على رأس وادي الزرقاء المفضي غرباً الى تخوم نابلس، التي أدام الغارات عليها وانفاذ الدوريات إليها. وقد كانت أبرز الأعمال والإنجازات منذ وطئت قدماه الشام ما يلي :

(١) الحيلولة دون اتصال العرب بالفرنجة : عمل صلاح الدين على الحيلولة دون اتصال بعض العرب بالفرنجة، حيث دفعهم شمالاً بالقوة ليبعدهم عن الفرنجة وتأثيرهم وأقطعهم الارض ورفع سويتهم ونقلهم من غل الكفران الى عز الايمان. وحارب من مزقوا المسلمين سعياً لإشباع مصالحهم وتلبية احتياجات انانياتهم على حساب المصلحة العامة وأرغمهم على الكف عن التعاون مع الفرنجة.

(٢) توحيد القدرات تحت قيادة واحدة : عمل على توحيد قدرات العرب والمسلمين حتى يتسنى له مجاهدة الصليبيين بقيادة واحدة موحدة، لأنه آمن بأن بالمعادلة التي تقول: «أن تكون جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة، وإن أمور الحرب لا تحتل في التدبير الا الوحدة».

(٣) إطلاق ثورة ثقافية وتربوية شاملة، كان قوامها المدارس

والحصون والاقطاعات الصغيرة التي عرقلت وحدة المسلمين في مواجهة الخطر الصليبي.

(٨) الإعداد والاستعداد للضربة القاضية، والعمل على إنهاء الوجود الصليبي طوال عقد كامل من ٥٧٣هـ الى ٥٨٣هـ حيث كانت فترة الانطلاق والصعود والاعداد والاستعداد التي تخللتها انتصارات كثيرة وانجازات كبيرة على طريق النصر الاكبر والفوز المؤزر في حطين. وخلال عشر سنوات اظهر صلاح الدين حنكة دبلوماسية ودراية حربية فائقة وذلك اثناء سعيه لتوحيد البلاد بعد تطهيرها من الاحتلال والفرقة وكان يتحين الفرص لتوجيه الضربات الموجهة للاحتلال الصليبي، وليضمن ولاء الزنكيين حتى لا يتفرق المسلمون، خصوصاً وهو في مرحلة التجهيز للمنازلة الكبرى.

(٩) نشر الحصون ونقاط الحراسة والقلاع والصحاريح، حيث رحل الاسرى الافرنج من الشام الى مصر، حيث سخرهم لتعزيز دفاعات حصونها خصوصاً قلعته في القاهرة والتي لا تزال قائمة الى اليوم، وسخر الذميين في بناء سور القاهرة الذي وصل طوله الى ٣٠ ألف ذراع، فهو المؤسس الثاني للقاهرة وهو مجدد الإسكندرية. ولقد ابدع مملوكه قراقوش في تحصين القاهرة والإسكندرية ودمياط وعكا لاحقاً، ورغم شدة وقسوة هذا المملوك الا انه حقق انجازات عظيمة ما زال اكثرها عامراً الى اليوم.

وهكذا.. والمرابطة الدائمة في الاردن والمناخرة فيه بعد تحديد الهدف والانشغال به.

(٦) جعل منبر المسجد الاقصى رمزاً للتحرير والقدس بوصلته، حيث حمل المنبر الذي بناه من قبله الملك نور الدين وأمر الناس الطواف به لترسيخ رمزيته وبعث العزيمة والحمية في النفوس المسلمة. وفي رسالته الى الخليفة العباسي يقول الناصر صلاح الدين: «وعرفنا ان البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه، والا ثبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإننا لم نتمكن بمصر مع المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة واليد قادرة والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة والجموع متيسرة». ويضيف: «فأنا ما بقي لي من دار إلا الشام حتى يقضي الله بيننا وبين الافرنج وهو خير الحاكمين».

(٧) ترتيب البيت الشامي من داخله، حيث انشغل بفتح الداخل الشامي فأخذ مدن الداخل السورية كافة وشمال العراق وجنوب تركيا وحصر الصليبيين في الساحل دون الداخل. وقام بتأديب الاسماعيلية وشيخهم سنان ومحاصرتهم في قلاعهم الحصينة وتضييق الخناق عليهم وتصفية كافة القلاع

(١١) كسب ود الجماهير المسلمة في المشرق الاسلامي، وحافظ على علاقات حسنة مع البيوتات الحاكمة خصوصاً الخلافة الشكسية في بغداد، اذ كان الجميع يتطلع اليه بأنه رمز الخلاص. وعمل على تأديب الارمن وشحن الثغور وبسط الامن في كل البقاع ووطد نفوذه في كل المواقع، وعمل على تنشيط التجارة وازدهار الزراعة وتوطين المسلمين في البلاد المحررة.

(١٢) توحيد الجبهة الإسلامية في اثنتى عشرة سنة (١١٧٤-١١٨٦) : إن صمود حلب طوال قرن كامل في وجه الموجات الصليبية فإن سقوطها في يد صلاح الدين كان ايذاناً بفتح القدس لأن إمكانات حلب كانت كبيرة جداً وكذلك سوى الوضع مع الموصل وهي المدينة التي انطلقت منها حركات الرفض للغزوات الصليبية وهذا كان مرعباً للصليبيين، لأنه يعني قوة اضافية لصلاح الدين لأن مراده من فتح البلاد الاسلامية رجالها لا أموالها وشوكتها لا زهرتها.

ثالثاً: المرحلة الفلسطينية

لقد تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي (رض) من إنجاز توحيد الجبهة الاسلامية في اثنتى عشرة سنة ١١٧٤م-١١٨٦م كمقدمة لتحرير بيت المقدس، وكانت طموحاته خلالها اكبر بكثير من إمكانات جسمه الذي هدته الامراض، فهو عملاق عسكري وكتلة أمراض متراكمة وكان علاجها الجهاد والنزال،

وكانت مصر ذخيرته والشام خندقه والعجم جنوده لذلك نشر الحصون ونقاط الحراسة والقلع والصحاريح على طول سيناء لأنها صلة الوصل مع مصر ولا يزال اكثرها ظاهراً. لقد تعلم من هزيمته القاسية في الرملة ان يحسن الأداء وان يتوسع في التجهيز والاعداد لاجتثاث العدو الذي تجذر في الساحل، لذلك ضم الجبهة الموصلية الى جبهة الجزيرة وجبهة الشام الى جبهة حلب وحارب جميع الخصوم الداخليين حرصاً على وحدة الجيش ووحدانية المرجعية في مواجهة العدو المتربص.

(١٠) البدء في مهاجمة الفرنجة في البر والبحر: بعد تمام الانتهاء من ترتيب الوضع الداخلي وانهاء القوى المتآمرة، عمد الى مهاجمة الفرنجة في البر والبحر معاً مستعيناً بالمغاربة ممن ينقضون في البحر ويفتكون في البر، وهو ما مكنه من ضرب الصليبيين من أماكن عديدة وبأدوات جديدة وهو ما لم يحصل من قبل. فعقدوا معه سلسلة من المهادنات المذلة وخضعوا لشروطه القاسية وهذه بداية النصر له والهزيمة لهم إذ إنه عودهم على التنازل المتدرج، وحاصرهم في مناطق محددة فلجأوا الى الدفاع، وما حصر قوم أنفسهم الا حُصروا وحُوصروا. واستكمل كل فتوح الشام ضد الصليبيين وتم تقليص وجودهم الى ثلاث مدن فقط هي صور، طرابلس وانطاكيا وذلك في فترة لا تزيد على ١٨ شهراً وذلك لأن عقيدة الهجوم الحربي والحرب الهجومية كانت جزءاً من كيانه.

القسطنطينية وملك جورجيا واميرارمينيا وسلطان قونية. واما في المواجهة فمال الى التسامح والاعتدال واشاع العدل ولم يبطش بالاعداء مما ادى الى تفكيك جمعهم خصوصاً أنهم ينحدرون من شعوب وقوميات مختلفة. كما اتبع أسلوب التدرج في الاستئصال للفرنجة دونما استفزاز للمرجعيات الاوروبية ولذلك ابقى بعض الامل من خلال بعض المواقع مثل صور وغيرها.

(٤) تدمير كافة قواعد الارتكاز والحصون والقلع التي يمكن ان يعود اليها العدو خصوصاً في الساحل خشية الهجمات الاوروبية. والاصرار على إطاحة كافة المواقع والقلع الداخلية التابعة للفرنجة لكي يلغي وجودهم، والعصف بالجموع المعادية وتشتيت قواتها المتجمعة والتعامل الكريم معهم كأفراد وتكريم القادة إلا من اعتدى.

(٥) ابتداء اسلوب المهرجانات والمسيرات الجماهيرية والمواسم الدينية ليكرس هيبة المسلمين في نفوس الفرنجة ممن سالموا وتوطنوا في فلسطين، فكان موسم النبي موسى مثلاً قبل عيد الفصح بيومين لكي يضمن في المهرجان الموسمي حشداً احتياطياً من المسلمين يواجه الفرنجة فيما لو سولت لهم أنفسهم غدرًا.

(٦) التوسع في الترميم والصيانة والاصلاح والتعمير للمقدسات الاسلامية في القدس: وأكثر من المنشآت المدنية

وكان انجازه الاعظم هو جمع المسلمين وقمع الصليبيين عبر إجلائهم بدل ابادتهم فقيمه الانسانية كانت صرخة ذلك الزمان، وقد استمرت المرحلة الفلسطينية نحو ست سنوات، استطاع خلالها القيام بالأعمال والإنجازات التالية :

(١) حشد الطاقات من مختلف البقاع الاسلامية، حيث قام بالطواف على البلاد الشامية لتجميع القدرات ومراكمة الامكانيات، وشحن فلسطين بالمرابطين والمجاهدين والاسرى المحررين وعائلاتهم. وبث الوعي في كافة الشرائح الاجتماعية وبعث الهمم وركز على الاجيال الجديدة وربطها بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوة، وقدم اهل العلم.

(٢) زرع العشائر الكردية والتركمانية في المناطق السهلية لسد الثغرات وما زالت الى اليوم عشرات العشائر في المنطقة تعود بأصولها الى الاكراد والتركمان حتى الفلكلور الشعبي والملابس في سهل مرج بن عامر تأثر بمثيله الكردي المسلم. وأشغل سرايا المسلمين بإدامة مباغته العدو في مواقعه ومعسكراته وقلاعها، واقتحام المدن الفلسطينية وخصوصاً نابلس لرفع معنويات المسلمين.

(٣) إدارة الصراع مع العدو بحنكة ودراية وخلق، حيث حصر المعركة مع اوروبا فقط لأنها احتلت المقدسات، وهادن إمبراطور

لاستراتيجيته في واحدة من معاركه على طريق تحرير بيت المقدس، نوجز ملامح استراتيجيته العسكرية في معركة (حطين) وأهمها ما يلي :

■ عمل صلاح الدين على دفع مجموعاته العسكرية لتهاجم المعقل العسكرية الصليبية في فلسطين فتحقق له انتصارات عديدة في جبل نابلس وجبل الجليل بما أثار الذعر والريبة في صفوف الفرنجة وأعاد الأمل للفلاحين المسلمين الخاضعين للحكم الصليبي.

■ واعتمد أسلوب الرصد المستمر ونظم المواجهة على مبدأ مواجهة المدن للمدن، وافرد القدس باهتمامه المباشر ومتابعاته اليومية وأقام في أقرب النقاط إليها في ما يقابلها في أراضي الأردن، وأما طرابلس فلقد حصن في مواجهتها إمارتي حمص وحماة الأيوبيتين وحلب في مواجهة أنطاكيا وهكذا.

■ لما اكتملت له السيادة على دولة تمتد من الساحل الليبي إلى أعالي نهر دجلة بما فيها اليمن والحجاز وشمال السودان أيقن بأنه حان الوقت لمنازلة مجموع القوى التي تشكل النظام الأوروبي القديم في أرض معترك واحد وإطاحتها دفعة واحدة تمهيداً لتحرير القدس الشريف.

■ تجهز لمعركة حطين وأتم الحشد والتحصيد واجتاز نهر

كالمدارس والمساجد والبيمارستانات في القدس. وكانت مدرسته
الصلاحية عبارة عن جامعة شافعية تخرج منها آلاف العلماء
الى أن تبرع بها الموظفون الاتراك للألمان في القرن التاسع عشر
فحولوها الى كنيسة بروتستانتية.

(٧) تركيز الاهتمام على اعادة بعث الدور الريادي للمسجد
الاقصى في عملية البعث الاسلامي في المنطقة، واعاد ترميم
مرافقه كافة وشيد عمائر كثيرة وحرسه من الجهة الغربية
بالغاربة الذين أوقف عليهم أكثر من ١٧ مزرعة وقرية، منها
عين كارم التي سُبِلت عليهم وحرمت التنازل عنها لأحد.

القسم الخامس

معركة حطين .. ثمرة المنهجية الصلاحية

أولاً: حطين نموذج تطبيقي

تبقى منهجية صلاح الدين نموذجاً يتبع ومثلاً يحتذى
على الدوام حيث ما زال اسمه يرن في جنبات المكان وزوايا الزمان
لانه الوحيد الذي تاه على اوروبا مجتمعة مرة بسيفه ومرة
بنبله وانسانيته. خضعت له العروش وخرت بين يديه التيجان
وسعت اليه صناديق المال ولكنه عاش لقضية عظيمة ورسالة
كريمة. كانت مصر ذخيرته والشام خندقه والعجم جنوده
وبذلك جمع محاسن القوة في الامة. وكنموذج تطبيقي

بظهير شعبي، بعكس صلاح الدين الذي كسب الأهالي بمعاملته وأثار حميتهم بجهاده ولكن توجه صلاح الدين انصب على إخراجهم من صفورية واستدراجهم إلى سهل حطين، وكان ذلك بناءً على دراسة شاملة واستطلاع ميداني وجهد استخباري.

■ آخر صلاح الدين المناوشات مع معسكر الصليبيين إلى ما بعد صلاة الجمعة ١١٨٧/٧/٣ وذلك لكي يكسب دعوات المسلمين في صلوات الجمعة، وعندما لم يتزحزح الفرنجة عن معسكرهم قرر صلاح الدين مهاجمة طبريا لاستدراجهم للزحف إليها عبر التلال الجرداء القاحلة الماحلة في حركة قاتلة ووضع غير مناسب، حيث يعوزهم الماء ويفتك بهم العطش في طريق ما أن يُسلك فلا مخرج منه.

■ ولكن صلاح الدين غامر باستغلال التناقضات بين جموع الفرنجة واستدراجهم لسلوك هذا الطريق بالرغم من أن فيه مخاطر أكيدة على جيشه الذي يتهدده الغرق مثل جيش طارق بن زياد في نهر الأردن أو بحيرة طبريا فيما لو لم يحسن التعاطي مع العدو إذ لا مجال أمامه للانسحاب ولكنها المكيدة والمكر ونصب الشراك والطعم للعدو مع ما فيها من مغامرة جسورة وشجاعة.

■ تحقق خلالها المسلمون أن ليس وراءهم إلا نهر الأردن ومن بين أيديهم القوم وأنه لن ينجيهم إلا الله ومن ثم الصبر

الأردن عقب صلاة الجمعة ١١٨٧/٦/٢٦ حاملاً معه المنبر الذي صنعه الخرتيني في حلب بأمر من نور الدين زنكي الشهيد وذلك كرمز للجهاد لأن الصليبيين اجتمعوا من حول خشبه (صليب الصليبوت) التي أوجت حماساتهم.

■ جهز جيشه من كافة المستويات وعززه بالمتطوعة وجحفله بطريقة لم تحصل للمسلمين منذ قرون، وأكثر من النبل والسهم ودرع الفرسان والخيول، وفرق على المقاتلة ٤٠٠ حمل من الشباب ووضع ٧٠ حملاً في متناول المحتاجين في وسط الميدان.

■ تحركت الجموع الصليبية في أوائل شهر تموز (يوليو) سنة ١١٨٧م في ظروف بالغة السوء فالروح المعنوية منحطة والعزيمة خائرة وتواجههم مصاعب الطريق وندرة الماء واستصبحوا معهم «صليب الصليبوت» يحمله منهم عباد الطاغوت وارشار الناسوت ودارت دائرة السوء عشية يوم الجمعة ١١٨٧/٧/٣م فبات الصليبيون على شر حال بعدما اغلقت عليهم سرايا صلاح الدين كل مجال واصبح صباح السبت الذي كان يوماً عسيراً على أهل الاحد فطلعت الشمس واشتد الحر وقتك بهم العطش.

■ وترك الصليبيون الأميرات والنساء في طبريا لثقتهم في أخلاق صلاح الدين وجنوده واحتشدوا في صفورية في جمع يصل تعداده إلى ستين ألفاً ولكنه يفتقد إلى الاحتياط ولا يتمتع

من حر الشمس انقض عليهم بسرعة فاجتمع عليهم الحر والعطش والنشاب والسيف وغرقوا في بحر من الفوضى والإرهاق والمسلمون يسدون عليهم جميع الطرقات، وفتك بهم التعب ونالهم النصب لأنهم بدون تموين وافتقدوا النوم طوال ليلة السبت ٤/٧/١١٨٧م جراء دوريات الازعاج التي بثها صلاح الدين حول معسكرهم.

■ كان الصليبيون يعتمدون على الفارس المدرع الثقيل الذي يفتقد لإسناد المشاة وحراستهم على عكس الفرسان المسلمين من التركمان والخز والأكراد المعروفين بالانقضاض الشديد والاعتماد على حماية المشاة من حولهم. لقد كانت حركاتهم مرنة وأسلحتهم خفيفة ونشابهم كثيفاً وسيوفهم بتارة ودبابيسهم نافذة في مواجهة قسوة الفرسان الإفرنج وتسليحهم الثقيل وطيشهم في القتال واندفاعهم الفتاك الذي تحركه الحماسة غير المحسوبة وغير المحكومة بأوامر المرجعيات.

■ لقد عمد صلاح الدين إلى اتباع أسلوب «القتال المتناوب» لطحن الخصم باستمرار وتعامل مع خيولهم المدرعة بتكثيف الضرب على أسفل بطونها وأرجلها ليحوّل الفرسان إلى مشاة وينقض عليهم بالسهام التي تُضرب إلى أعلى لتسقط على رؤوسهم من فتحات الحدق. وكانت معركته في الصيف للاستفادة من الحر في إنهاك الفرسان المدرعين بالحديد.

في المعركة. في المقابل كان الفارس الصليبي همجياً لا يعرف الانضباط عديم الصبر متهوراً فكان علاجه بمطاولة القتال كي يركبه الممل فيقترب عملاً طائشاً تكون فيه نهايته أو ينسحب فتكون الراحة منه، وكان صلاح الدين لا يصدقهم القتال بل يطلب من جنوده الاندفاع بين أيديهم فإذا عادوا عنهم يرجع جنوده في أعقابهم. المهم أنه استدرجهم نحو طبريا وأخرجهم من صفورية حتى يباعد بين سلاح الفرسان وسلاح المشاة لينزل ضرباته الساحقة في الطرفين.

■ بدأت المعركة الرئيسية مع طلائع الفرسان صباح السبت ١١٨٧/٧/٤ فكانت حطين معركة الماء، حيث وظف صلاح الدين العطش ومصاعب الطريق وثقل الدروع وانعدام المؤونة وتبعثر الجيش للبطش بالقوة الأساسية للفرنجة ولم يكن أمام الصليبيين من مخرج إلا التوقف لبناء معسكر سريع فكانت هذه الغلطة هي الماحقة وحاولت بعض كتائبهم تغيير الاتجاه نحو حطين مما احدث خللاً في صفوف العدو الامر الذي ضاعف من ضراوة الهجمات الصلاحية.

■ لقد جرهم صلاح الدين إلى خارج مكائهم وشتتهم في ساحة أعدها بشكل جيد وأغراهم بمياه طبريا فما حملوا ماءً ولا زاداً، فسارع لاحتلال طبريا وقطع عليهم طريق التقدم وسد طريق العودة، فشتت شملهم ولما نصبوا الخيام للراحة والوقاية

كل الجهات. وعلى موضع تلك الخيمة الملكية أمر صلاح الدين لاحقاً ببناء مسجد ما زال قائماً يذكر بنصره العظيم، ولكن اليهود استهدفوه بالتدنيس والتخريب.

■ استفاد صلاح الدين من المعلومات الاستخبارية والميدانية وخصوصاً التي تجمعت بعد استسلام بعض الصليبيين ممن دلوا على ثغرات الصف المعادي فاندفع باتجاه الهضبة التي تجمعت عليها بقايا المشاة ومن ثم شد على خيمة الملك لكي يحطم (صليب الصليبوت) لأنها الخشبة التي تذكي صمودهم، وفي الوقت نفسه فتح مسرباً ليهرب منه الياأسون. وبعد الظهيرة وعند اشتداد الحر وتحول الريح أسعفهم صلاح الدين بإشعال النار في الحشائش والأعشاب الجافة فخنقهم الدخان ونضجت جلودهم داخل أقفاص الحديد التي تدرعوا بها وأكملت النار عليهم طوقاً مغلماً.

■ وانكشفت المعركة عن تلال من القتلى وطوابير من آلاف الأسرى يتقدمهم علية القوم من زعماء الصليبيين، وعومل الأسرى جميعاً معاملة إنسانية نادرة، وعوملت العائلات المألكة بمنتهى التقدير والتسامح إلا ما كان منهم مجرم حرب حيث تم إعدام ٢٠٠ فارس بعد شرائهم من أسريهم وطلب من غيارى المتصوفة أن ينحروهم نحرأ لأنهم معروفون بالولوغ المجرم في دماء الأبرياء وأعراضهم. أما الآخرون فحملوا إلى دمشق وأطلق

■ ونجح صلاح الدين في توظيف العامل النفسي جيداً، حيث المبالغة في توصيل روايا الماء إلى المسلمين والإقدام أحياناً على صب الماء على مرأى من الصليبيين العطشى ليفت في عضدهم، وطوال الليل لم يناموا من شدة العطش والإرهاق وأصوات التكبير التي تصعد من المعسكر الإسلامي المسيطر على أرض المعركة.

■ وحول صلاح الدين ليلة حطين إلى ما يشبه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها، وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح. وكان صلاح الدين يرغب في تأخير العمل حتى ترتفع الشمس لكي تكون الحرارة أفضل الأسلحة ضد الأعداء ففتحت عساكره أمامهم الطريق فمروا فالتحم الجيشان ضحىً وشد فرسان الداوية وتراجع أمامهم المسلمون تكتيكياً بحسب المرسوم فتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة لا حسب الحاجة والرغبة التي يفرضها الواقع الجغرافي واللوجستي والمناخي.

■ سيطر المسلمون على الميدان العسكري فباعدوا بين المشاة والفرسان وطحنوا الطرفين ولم يتبق لهم إلا قلة تحمي (صليب الصلبوت) الذي يحمله كاهنان. عندئذ عمد الملك لبناء خيمة له على التل لتجميع القوات المبعثرة وتعويض فقدان المشاة وفصل الأسلحة عن بعضها. وأصبح فرسان الصليب مكشوفين لنشاب وسيوف وفؤوس المسلمين الذين ضغطوا من

فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد..).

■ لم يكن صلاح الدين من هوة الحروب بل من أبطال التحرير فهو سليل حضارة فيها: (الرأي قبل شجاعة الشجعان) فالرأي هو الذي انتصر في حطين لأنه رأي كان مدعوماً بالقوة والعقيدة وبراعة التنفيذ، ولقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس الصليبية التي تحطم جيشها وأفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من صفوة حراسها ونخبة حماتها. لقد كانت حطين مفتاح بيت المقدس وكانت بيت المقدس بداية للوجود الصليبي العلني في المشرق.

ثانياً: حطين قادت إلى بيت المقدس

وجرت في حطين أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، وعقب حطين قطف صلاح الدين ثمار النصر فنزل يوم الأربعاء ٨/٧/١١٨٧م على ميناء عكا ودخلها يوم الجمعة ١٠/٧/١١٨٧م واستنقذ منها ٤ آلاف أسير مسلم واخذ ما كان بها من حواصل الملوك وذخائرهم. واقام اول جمعة بالساحل منذ عقود ثم صعد الى بيروت ثم نزل الى غزة وعسقلان وغزة وانعطف الى نابلس وبيسان فحرر اكثر من خمسين بلداً في اسابيع وكل بلد كان فيه قلاع ومقاتلون وله منعة. ثم استراحت جيوش السلطان لمدة شهر استعداداً لفتح بيت المقدس وتوافد عليه العلماء

سراهم بصور شتى. يقول العماد الأصفهاني: زولقد رأيت في حبل واحد، ثلاثين وأربعين أسيراً يقودهم فارس وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، ورأيت القوامص (الكهنة) قوائص والفوارس فرانس والغوالي رخائص. أما الجرحى فقد كانوا قلة نادرة ولم ينج فرس واحد لأن صلاح الدين استهدفها باكراً فحوّل الفرسان إلى مشاة.

■ وبذلك وضع صلاح الدين حداً للمؤسسة العسكرية للاحتلال الصليبي الهادف إلى تحويل الشام إلى وطن لاتيني وراء البحار وبُددت قوتهم عبر جهود مضنية واستعدادات عظيمة وتكوينات دقيقة عرف كيف يصونها وكيف يستغلها. لقد نجح صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك معاً حيث جذبهم وانتزعهم من صفورية وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة فيها عطش وبطش، وبينما كانت قواته تتمتع بالوفرة وحرية الحركة أجبر العطش مشاة العدو على الفرار المبكر.

■ وكذلك نجح صلاح الدين في تدمير المناورة البارعة والاستغلال الذكي لعوامل الطبيعة والتوريط لعدوه في معركة كان بإمكانه تجنبها وتفادي التورط فيها، ولم يعمد صلاح الدين إلى المطاردة أو الملاحقة لفلول الجيش المهزوم لأن جيشهم تبددت قوته بالكامل بفعل حسن تخطيط صلاح الدين وحسن تدبيره فهو القائل (الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكافرين

■ ونجحت مساعي صلاح الدين في تحييد البيزنطيين وحاول الاستعانة بسُلطان الموحدين في المغرب ولكن حالت دون اتفاقهما ترسبات الماضي.

■ وامام توالي الهجمات الألمانية والفرنسية والانجليزية والدنماركية عمد السلطان الى تغليب مصلحة المسلمين بتخريب تحصينات مدن الساحل وهدم الحصون وتدمير القلاع لكي لا تقع في ايديهم فيطول مقامهم فيها ولا سيما أنها قريبة من بيت المقدس التي كانت شغله الشاغل.

■ لم يكتف صلاح الدين بتكوين جيش اسلامي نظامي ولم يوفر له السلاح المبتكر فقط، إنما أبدع في تسليحه بالاخلاق والمثل والقيم والمبادئ مما أسس لقرون لاحقة من الجهاد المستمر ضد اوروبا، مما حول المسلمين من مرحلة الدفاع ضد الصليبيين الى الهجوم، ونقل الحرب خارج البر الاسلامي الى قبرص ورودس وكريت وتحول الانكسار الى انتصار خصوصاً في زمن الملوك العظام «المماليك» الذين سمي عهدهم بالابيض لكثرة ما بنوا وشيدوا وانجزوا.

■ أحبته جماهير الأهالي لأنه عمر البلاد وأشاع الامن، واسقط الضرائب عن البلقاء وعجلون وحوران ولم يتقاضى الزكاة مع انه كان مثقوب اليد ولا يكثرث للمال برغم احتياجاته الجهادية.

والصالحون من كل بقاع الإسلام. لقد كان اجتياح الساحل حركة ذكية من صلاح الدين، إذ انه حال بين الفرنجة وشرابين الحياة القادمة من البحر. لقد ترك القدس خلفه وافسح المجال امامهم لجلب الصلح والاستسلام طمعاً في رحمته وتسامحه ومعاملته الانسانية ذائعة الصيت وثقة في وعوده وعهوده ذات الصدقية العالية. ومن أهم نتائج معركة حطين العظيمة ما يلي :

■ لم تكن حطين كارثة حربية لهم فقط بل كانت نصراً على اكبر حركة استيطانية شهدتها العصور الوسطى، وما تبقى من مواقع بعد حطين كان بقاؤه اصطناعياً يمهده الغرب بأسباب الحياة ويغذيه بالحملات المتتالية عبثاً حتى انقرض آخرها في عكا عام ١٢٩١م فكانت حطين بحق فتح الفتوح ومفتاح الانتصار بالنسبة لصلاح الدين.

■ اخذ الفرنجة المذعورون من نتيجة معركة حطين يستنجدون بالصليبية الاوروبية وطاف بعضهم على الحواضر الاوروبية يستنهض حميتها الدينية ضد الوثنيين الاتراك «المسلمين». أما بابا روما فقد مات كمدأ بعد سقوط القدس لحظة سماعه بالخبر وذلك في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧م، ومات البابا اللاحق عقب شهرين من ذلك في كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه. أما البابا الثالث فقد جيش ملوك اوروبا ضد المسلمين من جديد فترك لهم صلاح الدين مدينة صور لكي لا يجتمعوا عليه!!

بالامان والحماية حتى يرحلوا الى اوطانهم ولكنهم ابوا ورفضوا، ورغم ان القوة المدافعة كانت اربعة أمثال جيش صلاح الدين، الا أنها لم تصمد لأنها بقايا نظام منهار، نفوس أفرادها مدبرة وأرواحهم مقفرة فدهمتهم قوات المسلمين من الشمال من جبل سكوبس «المشرف» وتمركزت قيادة صلاح الدين في جبل الطور لسهولة المراقبة والمتابعة وأمطرهم بقذائف النفط القوسية التي جاء توقيتها مع تساقط أشعة الشمس في عيون الفرنجة في ذات الوقت الذي حرمت فيه النبالة حراسات الفرنجة من الظهور فوق السور بحيث يتمكن اللغامون الحلبيون من حفر الأنفاق تحت السور وسحب الحجارة وإشعال النار في مكانها لخلخلة الأسوار الدفاعية.

■ لقد تعامل صلاح الدين مع الصليبيين بحسم وعزم وادار حرباً نفسية موفقة، فانخلعت لذلك قلوبهم وانهارت نفوسهم فانشغلت جموعهم بتنظيم مسيرات البكاء والنواح والآلام والتوبة.

■ ولما يئسوا وقنطوا استسلموا للناصر صلاح الدين فدخلها صبيحة الجمعة ٢/١٠/١١٨٧م فامتلاً الفضاء بالتكبير والتهليل، وأنزل الصليب الكبير من فوق قبة الصخرة الشريفة ونظفها من الصور التي هي اشنع من التعرية، وازال التماثيل، وزين المدينة وأبراجها، وغسل المشهد المقدس بماء الورد الذي جلبته نساء الايوبيين من دمشق، وهدمت الكنيسة التي أقاموها

■ تعاهد الصليبيون على الاستماتة في الدفاع عن القدس وأقسموا على عدم التنازل عنها لصالح الدين الذي فتح الداخل والساحل بعد حطين واستدار إليها فوجدها قد حصنت بالدفاعات القوية والمجانيق المنصوبة والخنادق العميقة والحراسات الساهرة في الابراج والدوريات المتحركة خارج الاسوار، ولكن ذلك كله لم يصمد أمامه لأنه مقبل وهم مدبرون.

■ فعمل على الحصار وردم الخنادق ونقب الأسوار وبناء الابراج وضيق عليهم طوق النجاة، فهددوا بقتل الأسرى من المسلمين واعداد ذراريهم بأيديهم ليحرموا صلاح الدين من السبي وابداء المواشي واتلاف الموجودات، وهدم المقدسات بحيث لا يصلح أمام صلاح الدين سوى الصلح الذي مال إليه صلاح الدين واستطاع من خلاله أن يحافظ على سلامة المقدسات. ونجح في خلخلة الصف المعادي الذي كان يعاني من التفكك المذهبي والانحلال الاجتماعي والصراع القومي والتباين الطبقي فوصل السلطان الى السياسة دونما سلاح، بل سجل التاريخ له أنه حرر القدس دونما إراقة قطرة دم واحدة أو إزهاق روح واحدة، ولم ينتقم لمجازر المسلمين ومذابح مدنهم وقراهم التي استمرت قرناً كاملاً فنيت خلاله شرائح اسلامية وعشائر مسلمة بالكامل.

■ لقد شرع صلاح الدين بحصار القدس في ١٨/٩/١١٨٧م بعدما جدد عروضه على فرنجة القدس بالاستسلام والتمتع

أعنفها من الامبراطور فردريك الألماني، ولكن السلطان ردّ عليها بقوة المنتصر الذي تمكن بضربة واحدة من تدمير كل ما أحرزته الموجات الصليبية المتدفقة عبر قرن كامل.

■ كان بارعاً في تعامله مع الأوروبيين، فالطليان تغريهم العلاقات التجارية والامتيازات البحرية في الإسكندرية ودمياط، وكان على دراية تامة بوحشية الفرنسيين فعالجهم بالسيف، وبمكر الإنجليز ففاوضهم بدهاء ودراية، وتحاشى الألمان ولجأ أحياناً الى الهدنة المؤقتة، فكانت معاركه السياسية وحركاته الدبلوماسية ووقائعه العسكرية ونبله الاسلامي تسيير معاً في جهاده الموصول لتخليص الارض المقدسة من كارثة الاحتلال.

ثالثاً: الخلاصة والدرس المستفاد

(١) تركيز السلطان صلاح الدين على الاردن كمنطلق للتحرير، والشباب كأساس للتغيير، والعلماء كمادة للتنوير.

(٢) الجزع والفرع اليهودي من التجربة الصلاحية، فمراكز الدراسات والابحاث والمعاهد العلمية والجمعيات التاريخية عقدت حلقات البحث واجرت الدراسات على التجربة الصلاحية وخرجت بخلاصات مفزعة. وفي نهاية الثمانينيات من القرن العشرين عقدوا مؤتمراً كبيراً في تل ابيب لتقويم

داخل المسجد الأقصى، وأعيد تأهيل المسجد الأقصى وفرش
وجُمَر بالطيب وتهيأ المسجد لصلاة الجمعة بعد اسبوع من
التحرير بعدما نصب المنبر الصلاحي الذي وصل بمرافقة
حلبية ورفقة شامية رائعة. وفي ذلك قال رئيس وفد التهئة
الاندلسي الشاعر ابن جبير:

وكسرت حليهم عنوة فلله درك من كاسر
ثأرت لدين الهدى في العدا فأترك الله من تائر
فتحت المقدس من أرضه فعادت الى وصفها الطاهر
وخصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر

■ أما الصليبيون فطمعوا في تسامح السلطان فتهرب
أكثرهم من دفع الفدية وهرب آخرون وهُرب كثيرون، أما صلاح
الدين فاجتهد في ضبط الحراسات على مهارب الصليبيين لكي
لا يصاب واحدهم بمكروه، كما يشهد بذلك المؤرخ أرنول. ولقد
ضرب صلاح الدين أمثالاً رائعة في التسامح مع كل الطبقات،
وهو الامر الذي لم تعهده أوروبا من قبل فشهدت به مرغمة.

■ وعقب ذلك سلم صلاح الدين كنيسة القيامة الى
السريان ولم يصادر شيئاً من أوقافها ومرافقها بما فيها المشايخ
التي كانت تخدم الفرنجة، وكان لسقوط القدس دوي هائل في
بلاط ملوك اوروبا وتلقى صلاح الدين عدداً من التهديدات

نهايتهم الأكيدة، لذلك انكبوا على دراسة كل الموروثات الاسلامية في العصر الصليبي من كتب وخطب وشعر وادب وفقه وفتاوى ولم تسلم من ذلك حتى السير الشعبية والقصص والحكايات والنكات والنوادر ويحللون الايحاءات المنبعثة منها. وهم الآن منهمكون في عقد المقارنات والمشابهاة ويستنطقون اعماق التاريخ ويستوحون العظة والدرس والعبرة منه لتفادي النهاية المحتومة كما حصل للفرنجة سابقاً.

(٧) ان الاستراتيجية اليهودية تعتمد على العمق التاريخي وتستدعي البعد الديني وتوظف الاساطير وتستوحي التاريخ وتستلهم منه الدروس والعبر ويوظفونه قسراً لادعاء حقوق كاذبة لهم في فلسطين. لقد استذكروا التاريخ لجلب المجاميع اليهودية وحشدها في فلسطين، وفوق ذلك حللوا التاريخ الاسلامي واستخلصوا منه الفوائد المرغوبة واغلقوا الباب على الآخرين. وتسخر جولدا مائير من العرب بقولها: «إن العرب لا يقرأون التاريخ وان الذي لا يقرأ التاريخ لا يصنع التاريخ». والمفارقة ان اسرائيل تبحث عن المستقبل وهي مندفة بكليتها الى الماضي فبنيتها، لغتها، رجالها، قيمها، تشريعاتها، صلواتها، مقدساتها رموزها وقبعات رجالها كلها موصولة بالماضي بخيط عنكبوتي ممدود ولكنه واهن لأن عقدة الحروب الصليبية وخروج الصليبيين من فلسطين تلاحقها.

والله ولي التوفيق.

المنهجية الصلاحية بمناسبة مرور ثمانية قرون على معركة حطين الخالدة.

(٣) والغريب انهم درسوا كل المعطيات البشرية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية حتى الملابس والاسماء ومدلولاتها. وخرجوا بخلاصات كثيرة أدناها دراسة الأسماء التي يطلقها الناس على المواليد وأعلاها التوصية بتدمير كل بيئة يمكن أن تنتعش فيها روح المقاومة.

(٤) ويذكر هنا ان شارون وهو الذي خدم المؤسسة العسكرية ٣٥ عاماً بدون توقف ولا اجازة كان دائم الاهتمام بالمرحلة الصلاحية، ويعبر دوماً عن خشيته من الاسلام كونه الوحيد القادر على تهيئة البيئة وايجاد المناخ اللازم لتفريخ تجربة صلاحية جديدة، لذلك أخذ على نفسه عهداً بتدمير واستئصال اي وضع تنجم عنه بيئة ملائمة لتكرار التجربة او بعض منها.

(٥) والأمة اليوم في مواجهتها لهذه الغزوة الاستنصالية الاحتلالية الاستيطانية الشرسة تستذكر بطولات صلاح الدين، وتستلهم منهجه لأنه يبقى على الدوام رعشة عز في جسد الأمة، وناصية المجد على رأسها. ويبقى النصر ثمرة التضحية، ويبقى صلاح الدين صفحة بيضاء في تاريخ الامة المجيد.

(٦) إن الصهاينة يتحسسون من الصليبيات، ونهايتها

فهرس الدررلستر

- القسم الأول: الظروف التي سبقت ظهور صلاح الدين ٥
أولاً: نشوء التحديات الداخلية وضمور روح الجهاد في الأمة ٥
ثانياً: ظهور حروب الاستغلاب بين المسلمين وحروب الاستقلال
بين المسيحيين ٨
ثالثاً: بداية حملات الفرنجة الصليبية على المنطقة ١٠
- القسم الثاني: التهيئة التراكمية والإعداد المتواصل لجيل التحرير ١٢
أولاً: التغيير والإعداد التربوي والفكري للأمة ١٢
ثانياً: دور العلماء في التعامل مع الحكم والحكام ١٤
ثالثاً: دور البربر والترك والأكراد وأطراف الدولة في حماية الأمة ١٥
- القسم الثالث: ولادة صلاح الدين ونشأته، ومكانته ودوره التاريخي ١٨
أولاً: الولادة والنشأة ١٨
ثانياً: المكانة والأهمية ٢١
ثالثاً: الدور التاريخي ٢٥
- القسم الرابع: منهجية السلطان صلاح الدين الأيوبي في التحرير ٢٩
أولاً: المرحلة المصرية ٢٩
ثانياً: المرحلة الشامية ٣٣
ثالثاً: المرحلة الفلسطينية ٣٩
- القسم الخامس: معركة حطين .. ثمرة المنهجية الصلاحية ٤٢
أولاً: حطين نموذج تطبيقي ٤٢
ثانياً: حطين قادت إلى بيت المقدس ٥١
ثالثاً: الخلاصة والدرس المستفاد ٥٧